المفارقة في كلام الإمام الحسن عليه السلام

البحث الفائز بالمركز الرابع

بجائزة السبط المجتبى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام
للإبداع الفكري

الأستاذ المساعد الدكتور
عباس علي الفحام
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

المفارقة في كلام الإمام الحسن عليه السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
عباس علي الفحام
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

المقدمة:

لقد كان من نعم الله تعالى علينا أن نضع ما نملك من طاقات علمية أكاديمية متواضعة في خدمة أئمة المسلمين الهداة المهديين، وإظهار علومهم على صعيد البحث الأكاديمي، فلطالما ظلمت الجامعات العراقية والباحثون من حرمان شرف البحث في تراثهم العظيم، ولا ريب في أن لكم الشرف أيها الإخوة القائمون على إقامة مثل هذه المؤتمرات العلمية النوعية وإتاحة مثل هذه الفرص للباحثين، ولاسيما في مؤتمر خاص بالحسن الزكي عليه السلام. تضمنت دراستي جانبا أدبيا لافتا في لغة الإمام الحسن عليه السلام استبطن عظم المأساة التي عاشها سلام الله عليه وهو لغة المفارقة في كلامه فكان البحث بعنوان (المفارقة في كلام الإمام الحسن) وتضمن تمهيدا عرض لمفهوم المفارقة وتفاصيلها، ثم الدراسة الجوهرية التي شملت آليات المفارقة وحددها البحث بثلاث آليات هي:

الأولى: التوظيف التاريخي

الثانية: الاستعمال المنطقي

الثالثة: التوظيف الشعري

وقد انتهى البحث بجملة من النتائج المحددة لخصت رحلة البحث الممتزج فيه الأدب ومرارة النفس والتاريخ أيما امتزاج. وواضح من الطبيعة النقدية والأدبية للدراسة أنها اعتمدت مصادرهما العربية والأجنبية فضلاً عن مصادر مهمة من التاريخ وكتب السير وتراجم الرجال، محاولة في الكشف التحليلي لكلام

الحسن عليه السلام وبيان التعقيد الاجتماعي والسياسي التي مر بهما صلوات الله عليه، علنا نوفق في الإسهام الفاعل في إعلاء تراث الحسن الزكي عليه السلام والتشرف بخدمته، فإن وفقنا في بحثنا فذلك عين الظفر، وإن أخفقنا فخوض عباب علم أهل البيت عليهم السلام عسير على أمثالنا، وعزاؤنا في الحالتين أن يأخذوا بأيدي محبيهم إلى طريق النجاة والله من وراء القصد.

التمهيد:

مفهوم المفارقة:

تعني المفارقة في اللغة المباعدة والمباينة[١]، بينما هي في الاصطلاح تعني جملة من المعاني التي يصعب تحديدها، فهي مصطلح نقدي غربي متراكم الدلالات يتخذ أكثر من شكل في تحديد مفهومه فهو غامض وشائك ويثير الالتباس ((ومسألة إيجاد تعريف محدد لهذا المصطلح المراوغ، العصي على الفهم،jيعد مسألة صعبة جدًّا نظرًا لتاريخه الطويل المتشعب))[٢]، ولكنه على الجملة لغة داخل لغة تقدم منجزا يستبطن السخرية والتحقير ممتزجين بمرارة نفسية كبيرة، وأحيانا تذيل بخاتمة تلخص حدثاً هائلاً، وهي تثير دهشة القارئ أو السامع لما تحمل من مفاجآت غير متوقعة بعضها ظاهره مديح وباطنه هجاء لاذع وبعضها الآخر صريح ولكنه يحمل مجموعة من تناقضات الأضداد بين المفردات والجمل لعقد مقارنات غاية في التناقض لإظهار معنى عميق يصعب الكشف عنه بغير هذه الطريق أو لأنه يحمل تاريخا عريضا يعسر سرده بغير استعمال لغة مفارقة التناقض.

والمفارقة بهذا المعنى أسلوب جديد في التعبير تجاوز التعريف القديم له (قول شيء والإيحاء بنقيضه) إلى مفهومات أخرى كثيرة، منها مثلاً أن المفارقة هي قول شيء بطريقة تستفز عددًا لا نهائيًا من التأويلات المختلفة. وبهذا المفهوم تستعمل لغة المفارقة إمكانيات بيانية عميقة لأداء المعنى الخفي أو الواسع الدلالة ويمكن أن تكون أدواتها الاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز عموما والجناس، بل ذهب جملة من النقاد الغربيين إلى أن كل سياق أدبي هو سياق ذو مفارقة[٣]، لأنه يقوم

بمنح خصوصية لكل كلمة ترد فيه. وهذا الأمر يتطلب من القارئ أن يكتشف المعاني غير المرئية في ظاهر الكلام .وبهذا المنظور تصبح كل المعاني الأدبية نوعًا من المفارقة الخفية (المقنَّعة)، سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة.

آليات المفارقة:

أولاً: التوظيف التاريخي.

شاءت الأقدار أن تنعقد هدنة سلمية بين طرفين جد مختلفين طرف بني على الباطل والخبث والدهاء هو معسكر الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وطرف آخر مثل امتداد المعسكر النبوي والعلوي بقيادة الحسن بن علي عليه السلام، وشتان بين المعسكرين من حيث التوجهات والأهداف والسبل والغايات والقيادات. ومن هنا نشأت لغة المفارقة، مفارقة المكان الذي جمع بين القيادتين، ومفارقة التاريخ الذي جمعهما، ومفارقة الشخصيات المتحاورة وأصولها الاجتماعية. لذلك أغلب مفارقات الدهشة والسخرية والمأساة والتحقير استبطنها كلام الحسن عليه السلام، واستشعرها السامعون وربما صرح بها المستهدفون فكانت وبالا على أسماعهم الخبيثة، وكشفا لتاريخ أسرهم ونواياهم المنافقة.

الإمام الحسن ومعاوية:

من قبل، ذكر الإمام علي عليه السلام مرارة أن يقترن بأسماء العظماء حثالات البشرية فقال: ((أنزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية)) [٤]، لتستمر المأساة ذاتها مع ولده الحسن عليه السلام، فيدفع ثمن ضعف المجتمع وتعقيده ورقة إيمانه، إذ كثرت الحوارات المباشرة بين الطرفين كان فيها معاوية طرفا بذيئا يستقي من تراث أسرته الخسة والغدر والشتائم فيضطر الإمام لمجابهته ولكن بلغة تليق بعظمته، بلغة التاريخ الكفيلة بكشف ما ستر عن جمهور المستمعين الغافلين عن حقيقة قائدهم الجديد المزعوم، عله بذلك يستنهض الهمم فيهم من جديد، إذ قيل إنه لما بويع معاوية بعد الهدنة خطب فذكر عليا عليه السلام فنال منه ونال من الحسن ليرد عليه، فأخذ

الحسن بيده فأجلسه، ثم قام الحسن عليه السلام فقال: ((أيها الذاكر عليا، أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وجدك حرب، وجدتي خديجة، وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرا، وألأمنا حسبا، وشرنا قديما وحديثا، وأقدمنا كفرا ونفاقا))[٥]. إن جمال المفارقة الأدبية يكمن بعدم استعمال اللغة المباشرة التي قد تريح السامع - وهو هنا معاوية - الذي لم يكن يتوقع ردا بمثل هذه اللغة التي كشفت تحقيرا لا حدود له واستهزاء منقطع النظير وفوق ذلك مأساة المباينة بين ما عقد الإمام من مقارنة تاريخية لأسرتين مختلفتين تماما في الجاهلية والإسلام في النجابة والشهامة والسخاء والشجاعة وعفة الأصل ونقاء الثوب. ومما زاد الكلام لذعا وحفل بكثير من المفارقة والدهشة والمفاجأة روعة الدعاء وعمقه بعد الاستعراض التشخيصي المتناقض لتاريخ الأسرتين. وهذا النوع من المفارقة يسمى بالمفارقة المتناقضة بين المخبر والمظهر (The Contrast of Reality and Appearance) الأضداد كما عبر عنها الناقد الغربي (Muecke) باستعمال التضاد والتنافر فتأتي الحقيقة بأشد وضوحها.إذ إن المفارقة أبلغ وقعا عندما يشتد التضاد.أو المفارقة الصريحة (Overt Irony) التي يكون فيها الضحية(Victim)أو القارئ(Reader)[٦] أوكلاهما على وعي وإدراك بالمعنى الحقيقي الذي يعنيه صاحب المفارقة ويدركانه في الحال، ولذلك حين اكتشف السامعون مراد حقيقة المفارقة من هذه المتناقضات أمن جميع الحاضرين على دعاء الحسن عليه السلام[٧]، ونحن اليوم نؤمن أيضا.

ومثل هذا الموقف تكرر كثيرا، إذ كانت سلطة معاوية قائمة على الإعلام الزائف وتشويه الحقائق التي صورته خال المؤمنين وكاتب الوحي وأن أبويه أسلما وحسن إسلامهما، بينما أبو طالب في النار، إلى كثير من التدليس والتشويه التي مازال الناس إلى يومهم هذا يدفعون الثمن، ثمن إيصال دين معاوية إليهم وليس دين محمد صلوات الله عليه وعلى آل بيته، لذلك اجتهد الحسن عليه السلام في إبطال ادعاءاته كلما سنحت الفرصة باستعمال لغة جد موجعة لأسماع رأس السلطة

ومعاونيه، فمن خطبه عليه السلام في بيان أمجاده وحسبه ونسبه بعد حمد الله والصلاة على نبيه، قوله لمعاوية رادا: ((أما الخلافة فلمن عمل بكتاب الله وسنة نبيه، ليست الخلافة لمن خالف كتاب الله، وعطل السنة، إنما مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكا فتمتع به وكأنه انقطع عنه، وبقيت تبعاته عليه)). فقال معاوية: ((ما في قريش رجل إلا ولنا عنده نعم جزيلة، ويد جميلة)). قال الإمام الحسن عليه السلام: ((بلى من تعززت به بعد الذلة، وتكثرت به بعد القلة)). فقال معاوية: ((من أولئك يا حسن؟)). قال عليه السلام: ((من يلهيك عن معرفته))[٨].

وفي كلام الإمام الحسن مسحة جلية من الاستعمالات الكنائية التي تدع الذهن ينصرف كل منصرف في تصوير حالة الباطل، وكلما أراد معاوية بخبثه أن يحدد لغة الإمام ويضيق عليها ابتعد الإمام محلقا مصورا فداحة ضلال خصمه مثل قول معاوية ((ما في قريش رجل إلا ولنا عنده نعم جزيلة، ويد جميلة)). بينما كانت إجابة الإمام الحسن عامة غير مقيدة بحجم غواية معاوية وضلاله، فبعد أن أكد ما ذهب إليه معاوية فجأة باستهزاء مرير ومفارقة لاذعة بقوله: ((بلى، من تعززت به بعد الذلة، وتكثرت به بعد القلة)).أي ذلة يعنيها الإمام تعزز بها معاوية وأي قلة تكثر بها؟. إنها ذلة الطلقاء وقلة الناصر يوم فتح مكة، فمعاوية وأبوه ورهطه من مسلمة الفتح، وأعوانه الذين تكثر بهم وتعزز - على سبيل السخرية - هم من أضرابه نحو عمرو بن العاص والمغيرة وغيرهم. ولا ريب في أن تفاصيل معاني ما ذهب إليه الإمام الحسن قد أدركها معاوية، لذلك أحب أن يضيق من واسعها فطلب استيضاحا محددا فقال معاوية: ((من أولئك يا حسن؟)). لتأتي الإجابة باللغة ذاتها التي عجز الخصم عن مجاراتها، فحملته على أن يتصور ناصريه القريبين من ذهنه نحو ما ذكرنا من أسماء، وربما البعيدون الذين غرر بهم بتدليسه ودهائه، ولم يرد الحسن عليه السلام إراحة باله في الإجابة المحددة فشغله بتصوير تغريره للآخرين وخبث دهائه فقال عليه السلام: ((من يلهيك عن معرفته)). وهنا يكمن جمال المفارقة حين تحمل مجموعة هائلة من التأويلات بعيداً عن تحديد المعنى

الواحد. ومثل هذه الأخبار كثيرة حفظها لنا التاريخ[٩].

الإمام الحسن وأتباع معاوية:

أعني بأتباع معاوية من رؤوس قريش المشايعين له على الباطل والمعرفين بخبثهم وتربصهم للإسلام ولعلي عليه السلام وأهل بيته، وكلهم تجمعهم خصال واحدة من دناءة النسب وهشاشة الدين وكره محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام ونهجهما. لذلك انتهزوا فرصة الهدنة التي عدوها انتصار مرحلي لهم بالنيل من الإمام علي عليه السلام، فكان الحسن لهم بالمرصاد فكشف بكلامه خبث ما انطوت عليه سرائرهم ونفاقهم في دينهم وعرف الناس حقائق أصولهم الاجتماعية التي ما زالت سارية في سلوكهم. ومن المواقف التي جمعت الحسن بمثل هؤلاء ما ذكر أنه اجتمع أتباع معاوية الأربعة عنده وهم: عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعتبة بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وأخبروه أن الحسن قد أحيى أباه وذكره، وسألوه إحضاره لتعييره وتوبيخه وإقراره بأن اباه قتل عثمان على حد تعبيرهم. فحضر الإمام الحسن فعلا هذا المجلس البغيض، فقام الأربعة وتكلموا((بما لا ينبغي ذكره في حق علي عليه السلام)). فتكلم الحسن بن علي عليه السلام غير خارج عن سنة آبائه فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: ((أما بعد يا معاوية فما هؤلاء شتموني، ولكنك شتمتني فحشا الفتنة، وسوء رأي عرفت به، وخلقا سيئا ثبت عليه، وبغيا علينا عداوة منك لمحمد وأهله، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم)) وشرع الإمام عليه السلام في ذكر تفصيلات غاية في إصابة المعنى بأسلوب المقارنة المعهود في لغته بمثل هذه المواقف. وسأترك عرض تفاصيلها للقارئ في مصادرها لأن البحث لا يسعه الإعادة، وما يهمنا الآن ذكر الحسن عليه السلام لرهط معاوية وتعريته لهم أمام الناس وتصوير حقيقتهم المنهزمة بعد أن شعروا بالنصر فقال موجها كلامه لهم واحدا واحدا: ((.. وأما أنت يا ابن العاص فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولا من عهر وسفاح فتحاكم فيك أربعة من قريش فغلب عليك جزارها ألأمهم حسبا، وأخبثهم منصبا، ثم قام أبوك

فقال: أنا شانئ محمد الأبتر، فأنزل فيه ما أنزل، وقاتلت رسول الله ﷺ في جميع المشاهد، وهجوته وآذيته بمكة، وكدته كيدك كله، وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائبا وأكذبك واشيا، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسدا لما ارتكب من حليلته ففضحك الله وفضح صاحبك، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتا من الشعر، فقال رسول الله ﷺ اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة فعليك إذا من الله ما لا يحصى من اللعن))[١٠]. إن توظيف مفارقة الموقف التاريخي القريب لهذه السيرة السيئة الصيت لهو أمر بحد ذاته في غاية الطرافة والسخرية والألم ولاسيما حين تدعي هذه الشخصية قيادة الأمة الإسلامية وترفع راية التوحيد التي حاربها وما زال يحاربها ولكن بوجه جديد. ولعل توظيف الدعاء في آخر مقاله بهذا النحو يكشف عن حجم المأساة لما آلت إليه مقادير الأمة، فضلا عن السخرية المهينة.

ثم خاطب المغيرة فقال: ((وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن نقع في هذا وشبهه، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة استمسكي فإني طائرة عنك، فقالت النخلة وهل علمت بك واقعة علي، فأعلم بك طائرة عني، والله ما تشعر بعداوتك إيانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها ولا يشق علينا كلامك، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه، ولقد سألت رسول الله ﷺ هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؟ فقال: لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا لعلمه بأنك زان))[١١]. وليس ثمة تعليق يبين بما أكثر من هذا التحقير لشخصية المغيرة وضآلة حجمها، وتبدو فداحة الأمر وسخريته بالقول الأخير المفاجئ على لسان أقدس البشر.

ووجه الكلام نحو الوليد فقال: ((وأما أنت يا وليد فوالله ما ألومك على

بغض علي عليه السلام وقد جلدك ثمانين في الخمر وقتل أباك بين يدي رسول الله صبرا وأنت الذي سماه الله الفاسق، وسمى عليا المؤمن حيث تفاخرتما فقلت له: أسكت يا علي! فأنا أشجع منك جنانا وأطول منك لسانا، فقال لك على: أسكت يا وليد ! فأنا مؤمن وأنت فاسق، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله: ((أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون))[١٢]))[١٣].

وأما عتبة فقد خاطبه عليه السلام بقوله: ((وما أنت يا عتبة؟ فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندك خير يرجى، ولا شر يتقى، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء، وما يضر عليا لو سببته على رؤوس الأشهاد... قال معاوية: والله ما قام حتى أظلم علي البيت))[١٤].

وذكر أن الإمام عليه السلام لقي عمرو بن العاص في الطواف فقال له: ((لأهل لنار علامات يعرفون بها إلحادا لأولياء الله، وموالاة لأعداء الله.. وإني من قريش كواسطة القلادة يعرف حسبي، ولا أدعى لغير أبي، وأنت من تعلم ويعلم الناس، تحاكمت فيك رجال قريش، فغلب عليك جزارها، ألأمهم حسبا وأعظمهم لؤما، فإياك عني فإنك رجس، ونحن أهل بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرا))[١٥]، وتلحظ بلاغة الكلام بين التصريح والتكنية فحين قال (لا أدعى لغير أبي) صرح معلنا دناءة خصمه بقوله (تحاكمت فيك...) وملقيا الحجة عليه حين أعلنه حاكما على نفسه مؤكدا بقوله (وأنت تعلم...).

ثانياً: الاستعمال المنطقي.

وقد كان الاستعمال اللغوي العقلي والمنطقي أحد عناصر لغة المفارقة في كلام الحسن عليه السلام وآلياته، وهو يحمل إضافة إلى عنصر دهشة السامع ومفاجأته سمة الإقناع بالإتيان بالدليل والبرهان العقلي في عرض الحجة وتعزيزها. نحو قوله في فضل أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبحضرته: ((أيها الناس سمعت جدي رسول الله رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا مدينة العلم، وعلي بابها، وهل يدخل المدينة إلا من

بابها. ثم نزل فوثب علي عليه السلام فحمله وضمه إلى صدره)). [١٦] إن الاستفهام الإنكاري في كلامه الأخير إضافة مدهشة توضح منزلة علي عليه السلام من ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله، إضافة حملت أباه على احتضانه وضمه. وهو استعمال منطقي كون المدن يتم الدخول إليها من الأبواب عادة لمن طلب الفائدة والسلامة. ومثل ذلك قوله للمنافقين من أصحابه بشأن الصلح وملامتهم: ((.. كذبتم، فوالله ما وفيتم لمن كان خيرا مني فكيف تفون لي، أو كيف أطمئن إليكم ولا أثق بكم. إن كنتم صادقين فموعد ما بيني وبينكم معسكر المدائن، فوافوني هناك. فركب، وركب معه من أراد الخروج، وتخلف عنه خلق كثير لم يفوا بما قالوه)) [١٧].

الإمام وقضية الصلح:

واجتهد الحسن عليه السلام في تعريف أصحابه بحكمة الهدنة وجملة معطياتها القريبة والبعيدة بدءا بالاستبقاء على حياتهم وانتهاء بكشف زيف ادعاءات معاوية وأتباعه، متوسلا بذلك بلغة بليغة كان من بعض أدواتها عنصر المفارقة نحو قوله: ((أيها الناس إن معاوية زعم أني رأيته للخلافة أهلا ولم أر نفسي لها أهلا، وكذب معاوية. أنا أولى بالناس في كتاب الله، وعلى لسان نبي الله، فأقسم بالله لو أن الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها ولما طمعت فيها يا معاوية وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما ولت أمة أمرها رجلا قط وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالا حتى يرجعون إلى ملة عبدة العجل، وقد ترك بنو إسرائيل هارون واعتكفوا على العجل هم يعلمون أن هارون خليفة موسى وقد ترك. وقد تركت الأمة عليا وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير النبوة فلا نبي بعدي. وقد هرب رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه وهو يدعوهم إلى الله حتى فر إلى الغار ولو وجد عليهم أعوانا ما هرب منهم، ولو وجدت أنا أعوانا ما بايعتك يا معاوية. وقد جعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه، ولم يجد عليهم أعوانا. وقد جعل الله النبي صلى الله عليه وآله في سعة حين فر من قومه لما يجد أعوانا عليهم وكذلك أنا وأبي في

سعة من الله حين تركتنا الأمة وبايعت غيرنا، ولم نجد أعوانا وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضا)). [١٨] ومن استعمالاته العقلية المقنعة ما روي في الأمر ذاته عن أبي سعيد قال: ((قلت للحسن بن علي يا ابن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته؟ وقد علمت أن الحق لك دونه، وأن معاوية ضال باغ؟! فقال: يا أبا سعيد ألست حجة الله - تعالى ذكره - على خلقه، وإماما عليهم بعد أبي؟ قلت بلى. قال: ألست الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، قلت: بلى، قال فأنا إذن إمام لو قمت، وأنا إمام إذا قعدت)) [١٩].

ومن ذلك حجاج سليمان بن صرد الخزاعي [٢٠] للإمام الحسن عليه السلام ومجاسرته عليه بشأن الموافقة على الصلح فقال عليه السلام من جملة ذلك: ((.. أشهد الله وإياكم إني لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم وإصلاح ذات بينكم... وأما قولك يا مذل المؤمنين فوالله لئن تذلوا وتعافوا أحب إلى من أن تعزوا وتقتلوا فإن رد الله علينا حقنا في عافية قبلنا، وسألنا لله العود على أمره وإن صرفه عنا رضينا وسألنا الله العون على أمره، وإن صرفه عنا رضينا وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا..)) [٢١].

وقد تتداخل المفارقة العقلية مع التوظيف التاريخي في بهاء بلاغي طريف ومرير معا نحو كلامه عليه السلام مع عبد الله بن الزبير لما غره معاوية: ((أما والله لولا أن بني أمية تنسبني إلى العجز عن المقال، لكففت عنك تهاونا بك، ولكن سأبين لك ذلك لتعلم أني لست بالعي ولا الكليل اللسان، إياي تعير، وعلي تفتخر، ولم تك لجدك في الجاهلية مكرمة أن لا تزوجه عمتي صفية بنت عبد المطلب فبذخ بها على جميع العرب، وشرف بمكانها، فكيف تفاخر من في القلادة واسطتها وفي الأشراف سادتها، نحن أكرم أهل الأرض زندا، لنا الشرف الثاقب، والكرم الغالب، ثم تزعم أني سلمت الأمر لمعاوية فكيف يكون؟ ويحك كذلك وأنا أشجع العرب ولدتني فاطمة سيدة النساء وخيرة الأمهات، لم أفعل ويحك جبنا ولا فرقا، ولكنه بايعني مثلك وهو يطلب تيره ويداجيني المودة فلم أثق بنصرته

لأنكم بيت غدر، وأهل إحن ووتر فكيف لا تكون كما أقول وقد بايع أمير المؤمنين أبوك، ثم نكث بيعته ونكص على عقبيه واختدع حشية من حشايا رسول الله صلى الله عليه وآله ليضل بها الناس، فلما دلف نحو الأعنة ورأى بريق الأسنة قتل بمضيعة لا ناصر له وأتى بك أسيرا، وقد وطئتك الكماة بأظلافها والخيل بسنابكها، واعتلاك الأشتر بريقك، وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث فنحن ويحك نور البلاد وأملاكها، وبنا تفتخر الأمة، وإلينا تلقى مقاليد الأزمة، نصول وأنت تختدع النساء.. وأتى بك أسيرا تبصبص بذنبك، فناشدته الرحم أن لا يقتلك، فعفى عنك فأنت عتاقة أبي وأنا سيدك وأبي سيد أبيك، فذق وبال أمرك. فقال ابن الزبير: اعذرنا يا أبا محمد فإنما حملني على محاورتك هذا وأشار إلى معاوية. اشتهى الإغراء بيننا.. فهلا إذا جهلت أمسكت عني فإنكم أهل بيت سجيتكم الحلم والعفو))[٢٢]. ثم التفت الإمام إلى معاوية قائلا: ((يا معاوية أنظر أأكع عن محاورة أحد؟ ويحك أتدري من أي شجرة أنا، وإلى من أنتمي، انته قبل أن أسمك بسمة يتحدث بها الركبان في آفاق البلدان))[٢٣]. لله أي تحقير لابن الزبير حمل كلامه عليه في قوله الأول (أما والله لولا أن بني أمية تنسبني إلى العجز عن المقال، لكففت عنك تهاونا بك) وأي تلويح بالدناءة لمعاوية تقابلها الرفعة استبطن كلامه الأخير في ذكر الشجرة! وأي عرض تاريخي مختصر مصيب للغرض شدد كلامه عليه السلام بذكر موقعة الجمل وذلة ابن الزبير الذي استشفع فيه الإمامان الحسن والحسين أباهما ليعفو عنه. وإنما ذكر الإمام بني أمية قاصدا بذلك إعلام معاوية المضلل بأن في الحسن عيا وحصرا لما في لسانه من رتة أو ثقل كالفأفأة[٢٤] وأنه غير مبين، لذلك ذكر العجز عن المقال والعي في صدر كلامه وختم بقوله مفندا زعم معاوية: ((أنظر أأكع عن محاورة أحد؟)).

ومن ذلك قوله لأهل العراق بعد البيعة لمعاوية: ((.. يا أهل العراق إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي))[٢٥].

ومن أطرف المفارقات المنطقية الإجابة الكتابية للحسن عليه السلام لمعاوية لما أرسل

إليه أن يخرج فيقاتل الخوارج الذين خرجوا عليه فقال: ((سبحان الله، لو آثرت أن أقاتل أحدا من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فإني تركتك لصلاح الأمة وحقن دمائها))[٢٦]. وهذه من مفارقات الأحداث (Irony of Events) التي تتحقق عندما يكون هناك تناقض أو تعارض بين ما يتوقع وبين ما يحدث. وقد استعمل الإمام مفارقة الحجاج المنطقي في الموضوعات الوعظية والعقلية، فقد قيل له: ((إن أبا ذر كان يقول: الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة. فقال عليه السلام: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله لم يتمن أنه في غير الحال التي اختارها الله له))[٢٧].

وجاءه عليه السلام رجل من الأثرياء فقال له يا ابن رسول الله إني أخاف من الموت، فقال عليه السلام له: ((ذاك لأنك أخرت مالك، ولو قدمته لسرك أن تلحق به))[٢٨]..

وقال عليه السلام لأصحابه: ((ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد))[٢٩].

وقال عليه السلام: ((رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافا)) [٣٠]. فهذه كلها مفارقات أدبية اعتمدت إثارات عقلية مقنعة.

ثالثاً: التوظيف الشعري.

الشعر عند العرب وثيقة يصعب نكرانها، وقد استعمله الإمام الحسن عليه السلام في مفارقاته الأدبية ضد خصومه القرشيين المناصبين للإسلام على سبيل (من فمك أدينك) مذكرا إياهم الأمس القريب ومجاهدتهم للنبي صلوات الله عليه ودعوته الإلهية. ودل حفظ الشعر على لسان الإمام الحسن عليه السلام على ثقافة أدبية عالية الاستثمار لتعزيز الحجة مثلما دل على حسن مفارقة أدبية في الكشف عما خبأ في النفس من مرارة السخرية والألم على حد سواء، لذلك بدت أغلب مفارقاته الشعرية في مواطن التعريض بالخصوم المشوهين للحقائق والمعلنين الحرب على الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام جميعا. نحو قوله لمعاوية لما ذكر عليا عليه السلام بسوء:

((.. أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك لما هم أن يسلم تنهاه عن ذلك:

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا ... بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا

خالي وعمي وعم الأم ثالثهم ... وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا

لا تتركنن إلى أمر تكلفنا ... والراقصات به في مكة الخرقا

فالموت أهون من قول العداة لقد ... حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت)) [٣١].

ونحو قوله عليه السلام لعمرو بن العاص: ((.. ويحك يا ابن العاص ألست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي:

تقول ابنتي أين هذا الرحيل ... وما السير مني بمستنكر

فقلت ذريني فإني امرؤ ... أريد النجاشي في جعفر

لأكويه عنده كية ... أقيم بها نخوة الأصعر

وشانئ أحمد من بينهم ... وأقولهم فيه بالمنكر

وأجرى إلى عتبة جاهدا ... ولو كان كالذهب الأحمر

ولا أنثني عن بني هاشم ... وما اسطعت في الغيب والمحضر

فإن قبل العتب مني له ... وإلا لويت له مشفري)) [٣٢]

ومثل ذلك التوظيف قوله عليه السلام للوليد بن عتبة: ((.. ويحك يا وليد مهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه:

أنزل الله والكتاب عزيز ... في علي وفي الوليد قرآنا

فتبو الوليد إذ ذاك فسقا ... وعلي مبوء إيمانا

ليس من كان مؤمنا عمرك الله ... كمن كان فاسقا خوانا

سوف يدعى الوليد بعد قليل ... وعلي إلى الحساب عيانا

فعلـــي يجـــزى بـــذلك جنانـــا ووليـــد يخـــزى بـــذاك هوانـــا

رب جـــد لعقبـــة بـــن أبـــان لابـــس في بلادنـــا تبانـــا

وما أنت وقريش؟ إنما أنت علج من أهل صفوريه. وأقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن مما تدعى إليه))[٣٣].

ونحوه قوله عليه لعتبة بن أبي سفيان: ((.. وأما وعيدك إياي بالقتل، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك، أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك:

يـــا للرجـــال وحـــادث الأزمـــان ولســـبة تخـــزي أبـــا ســـفيان

نبئـــت عتبـــة خانـــه في عرســـه جـــبس لئـــيم الأصـــل مـــن لحيـــان

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه، فكيف يخاف أحد سيفك ولم تقتل فاضحك، وكيف ألومك على بغض علي وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد))[٣٤].

ومنها كتابه عليه السلام إلى معاوية: ((أما بعد فإنك دسست إلي الرجال، كأنك تحب اللقاء، ولا أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله، وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به ذووا الحجى، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول:

فقـل للـذي يبغـي خـلاف الـذي مضـى تجهـز لأخـرى مثلـها فكـأن قـد

فإنـا ومـن قـد مـات منـا لـك الـذي يـروح فيمسـى في المبيـت ليغتـدى))[٣٥]

ومجمل الأمر إن لغة المفارقة في كلام الحسن عليه السلام حاجة لغوية طلبتها دلالات واسعة اعتمدت لبيان حقيقة وكشف ما خبأ منها بفعل تشويهات لها مقصودة من الخصوم.

الخاتمة:

توضحت من البحث مجموعة النتائج يمكن إدراجها بنقاط:

١- إن مفهوم المفارقة غائر المعنى وغير محدد الملامح ويمكن أن تكون السياقات الأدبية المثيرة والمستبطنة للسخرية والتحقير أكثر وجوهها وضوحا.

٢- إن المفارقة الأدبية في كلام الإمام الحسن عليه السلام أشارت إلى حجم المأساة المريرة التي مر بها الإمام وحجم التعقيد الاجتماعي والسياسي.

٣- اعتمد الإمام لغة المفارقة في كلامه لغرض الكشف عن الشخصيات السيئة التي شوهت معالم الدين الحنيف وأرادت تحويله إلى سلطة عائلية وإمبراطورية بعيدة عن التوجهات الفكرية التي جاء بها الدين الحنيف.

٤- تمثلت الوسائل التي انتهجتها المفارقة الأدبية في كلام الحسن عليه السلام بثلاث آليات هي التوظيف التاريخي والاستعمال العقلي المنطقي والتوظيف الشعري.

٥- استعمل الإمام مفارقة التوظيف التاريخ الاجتماعي والشعري في موضوعات الخصوم بينما سلك في الاستعمال العقلي مفارقة الاحتجاج مع قومه وبيان تعقيد قضية الصلح.

هوامش البحث

(١) ظ. لسان العرب، ابن منظور: (فرق)

(٢) مفهوم المفارقة في النقد الغربي، نجاة علي(مجلة نزوى الألكترونية) عدد ٥٣، ٢٠٠٩.

(٣) ظ. مبادئ النقد الأدبي، إ.ا. رتشاردز، ترجمة مصطفى بدوي: ٣٢١.

(٤) فرحة الغري، ابن طاووس: ٧.

(٥) الإرشاد، المفيد: ١٥/٢.

(٦) ظ. Muecke, D. C; Irony and The Ironic, p. (36-40) ، نقلا عن المجلة الألكترونية(مجلة نزوى) للكاتبة نجاة علي العدد الثالث والخمسون- ٢٠٠٩/٧/١٨

(٧) ظ. الإرشاد، المفيد: ١٥/٢

(٨) تنظر الحوارات: بحار الأنوار، المجلسي: ١٢٢/٤٤، الروائع المختارة، مصطفى الموسوي: ٥١ - ٥٣
(٩) تنظر محاورته لمروان بن الحكم مثلا: الروائع المختارة،،مصطفى الموسوي: ٨٢ - ٨٤
(١٠) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٩٤/٦
(١١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٩٤/٦
(١٢) السجدة: ١٨
(١٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٩٤/٦ ، الروائع المختارة، مصطفى الموسوي: ٧٣ – ٨٠
(١٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٩٤/٦
(١٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٩٤/٦، بحار الأنوار، المجلسي: ٤٤/ ١٠٢
(١٦) الاختصاص، المفيد: ٢٣٨
(١٧) الخرائج والجرائح، الراوندي: ٥٤٧/٢، بحار الأنوار، المجلسي: ٤٣/٤٤
(١٨) كتاب سليم بن قيس: ٤٦٠، الأمالي، الطوسي: ٥٦٧، الاحتجاج، الطبرسي: ٨/٢.
(١٩) بحار الأنوار، المجلسي: ٢/٤٤
(٢٠) تنظر ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٢٥/٦
(٢١) الإمامة والسياسة،ابن قتيبة: ١٤٢/١
(٢٢) الروائع المختارة، مصطفى الموسوي: ٨٠ - ٨٢
(٢٣) المصدر نفسه
(٢٤) مقاتل الطالبيين، الأصفهاني: ٣١، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٩/١٦، بحار الأنوار، المجلسي: ٨٨/٤٤،
(٢٥) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٤٠٤/٣
(٢٦) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٤٠٩/٣، الروائع المختارة، مصطفى الموسوي: ١٠٧
(٢٧) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد:١٥٦/٣، تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٢٥٣/١٣
(٢٨) تاريخ اليعقوبي: ٢٧٧/٢، الروائع المختارة، مصطفى الموسوي: ١١٣
(٢٩) كشف الغمة، الاربلي: ١٩٥/٢
(٣٠) الإرشاد، للشيخ المفيد: ٨٠، تاريخ ابن عساكر، ابن عساكر: ٣ / ٢١٥، الروائع المختارة، مصطفى الموسوي: ١١٩
(٣١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ٢٨٩/٦
(٣٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ٢٩٢/٦،وينظر: الحجة، فخار بن معد: ٢٣٨
(٣٣) الأمالي، الصدوق: ٥٧٩، شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ٢٩٢/٦، والأبيات تنسب لحسان بن ثابت: ينظر: شرح الأخبار، القاضي المغربي: ٥٦٩/٢، مناقب آل أبي طالب، ابن شهراشوب: ٢٩٤/١، الغدير، الأميني: ٢/ ٤٥،الروائع المختارة، مصطفى الموسوي: ٩٢

(٣٤) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٢٩٤/٦ والأبيات لنصر بن الحجاج وتنظر ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٢٨٥/٣، وينظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٢٧/٦٢

(٣٥) الإرشاد، المفيد: ١٠/٢، مقاتل الطالبيين، الأصفهاني: ٣٣، كشف الغمة، الأربلي: ١٦١/٢ والأبيات لعبيد بن الأبرص: ديوانه: ٦٥.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر والمراجع العربية

١- الاحتجاج، الشيخ الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، - ١٩٦٦ م، مطبعة دار النعمان - النجف الأشرف.

٢- الاختصاص، المفيد(ت٤١٣هـ)،تحقيق: علي أحمد الغفاري والسيد محمود الزرندي، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، دار المفيد - بيروت.

٣- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ أبو عبد الله، محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٦-٤٣١هـ). تحقيق: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٤- الأمالي، الشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٥- الأمالي، الشيخ الطوسي(ت٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع - قم.

٦- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي(ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.

٧- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر(ت٥٧١هـ). تحقيق: علي شيري، مطبعة دار الفكر، لبنان - ١٤١٥هـ.

٨- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب(ت٢٥٤هـ)، تحقيق: السيد محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٤هـ.

٩- تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١٠-

١١- الجرائح والخرائج، قطب الدين الراوندي(ت٥٧٣هـ)، تح: مؤسسة الإمام المهدي، ط١، ١٤٠٩هـ، مطبعة العلمية قم.

١٢- الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب، السيد فخار بن معد(ت٦٣٠هـ)، تحقيق: السيد محمد بحر العلوم، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ، مطبعة أمير - قم.

١٣- الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن عليه السلام ، السيد مصطفى الموسوي، مراجعة وتعليق: السيد مرتضى الرضوي، الطبعة الأولى - ١٩٧٥ م، دار المعلم للطباعة، طهران.

١٤- الغدير في الكتاب والسنة والأدب، العلامة الأميني(ت١٣٩٢هـ)، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، لبنان - ١٩٧٧م.

١٥- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأخيار، القاضي النعمان المغربي(ت ٣٦٣ هـ)، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي. ايران.

١٦- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة،١٩٥٩ م.

١٧- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر - بيروت، دار صادر - بيروت.

١٨- فرحة الغري، السيد ابن طاووس(ت ٦٩٣هـ)، تحقيق: السيد تحسين آل شبيب الموسوي، الطبعة الأولى - ١٩٩٨ م. مطبعة محمد. قم.

١٩- الكامل في التاريخ، ابن الأثير(ت ٦٣٠هـ)، المطبعة: دار صادر - دار بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر- ١٩٦٦م.

٢٠- كتاب سليم بن قيس الهلالي(٧٦هـ): تحقيق محمد باقر الأنصاري، د.ت.

٢١- كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م، مطبعة دار الأضواء، بيروت - لبنان.

٢٢- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج علي بن الحسن الأصفهانى(ت٣٥٦هـ)،تقديم: كاظم المظفر، الطبعة الثانية، مؤسسة دار الكتاب، ١٩٦٥م.

٢٣- مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ)، مصحح من لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، ١٩٥٦م.

المراجع الأجنبية والمجلات:

--Muecke, D. C; Irony and The Ironic, Methuen, London and New York, (1982), p.17

- مفهوم المفارقة في النقد الغربي، نجاة علي، مجلة نزوى، (موقع ألكتروني)، العدد ٥٣، ٢٠٠٩

- إ.ا. رتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة مصطفى بدوى، مراجعة لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة مصر ١٩٦٣، ص٣٢١.